الفصل الأول

خطة الدراسة ومنهجها

الوقف ودوره في بناء الحركة التعليمية والثقافية :

أسهم الوقف في إرساء دعائم ثقافية متنوعة في المجتمعات الإسلامية على مدى قرون طوال من بينها :

- تشييد المدارس، وتعيين المدرسين فيها، والإنفاق على طلبة العلم.
- الاستفادة من المساجد في التعليم بإيجاد زوايا العلم وحلقات الدرس.
- العناية بتوفير مصادر للمعلومات في المدارس والمساجد والربط والمارستانات

وقد شارك في هذه الأنماط الوقفية قطاع عريض من المجتمع خلفاء وسلاطين وحكام وأمراء، وأثرياء وعلماء ووزراء، وبعض من عامة الناس، والمتتبع للتاريخ الإسلامي يدرك عظم العناية المولاة لإنشاء المدارس الوقفية التي انتشرت في أرجاء العالم الإسلامي المعروف، إذ كان التسابق نحو إنشائها وإقامتها ظاهرة واضحة للعيان، حتى أن القرى النائية لم تخلو منها، فما بالك بالمدن الكبيرة التي كانت تعج بالمدارس المتنوعة من مثل دور القرآن والحديث ومدارس المذاهب الفقهية، ومدارس الطب، والمدارس الكبيرة الشاملة، ويقدم لنا كتاب النعيمي الذي وضعه في تاريخ مدارس دمشق وحدها صورة رائعة تبرز عناية لا نظير لها في التاريخ بالتعليم والحرص على نشر الثقافة، ومن كان يتولى التدريس فيها من أعلام وأقطاب في مجالات العلم المختلفة، فالكتاب كما يشير مؤلفه في مقدمته كان يهدف من وراء تأليفه: ضبط الأماكن التي وقفها بدمشق من ساق الله تعالى الخير على يديهم ووقفوا على ذلك أوقافاً دارة وبالتالي أورد فيه تاريخ مجموعة كبيرة من أسماء المدارس الوقفية في دمشق فبدأ بدور القرآن ثم الحديث ثم مدارس الأئمة الأربعة الشافعية، فالمالكية، ثم الحنفية، والحنبلية، ثم مدارس الطب. مع تراجم للأعلام الذين تصدروا للتعليم في كل واحدة منها منذ أن أنشئت[1].

ونحن وإن كنا لا نملك تاريخاً محدداً يوضح لنا متى تأسست أول مدرسة في الإسلام، إلا أن واحداً ممن تتبعوا تاريخها، يرى بأنها لم تكن معروفة في عهد الصحابة والتابعين وإنما حدث عملها بعد الأربعمائة من سنى الهجرة، وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الإسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة البيهقية. وبنى بها أيضاً الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة، وبنى بها أخوه السلطان محمود ابن سبكتكين مدرسة وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية... وأشهر ما بنى في القديم المدرسة النظامية ببغداد لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم، وهي منسوبة إلى الوزير نظام الملك أبي علي الحسن بن علي بن إسحاق بن العباس الطوسي وزير ملك شاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكال بن سلجوق في مدينة بغداد، وشرع في بنائها سنة سبع وخمسين وأربعمائة[٢].

ولم تكن المدارس مجرد أبنية تقام، أو مجموعة من الطلاب يتلقون العلوم فيها على مدرسين في زمان ومكان محددين، بل كان أكثرها في شكل مؤسسات علمية راقية لها نظمها الخاصة التي تسير عليها، وتقاليدها التي ترعاها، ومواردها المالية التي تعتمد عليها في أداء رسالتها.

فالمدرسة المستنصرية في بغداد التي فُرغ من بنائها في عام ٦٣١ هجرية بدأ التعليم فيها وفق نظام دقيق إذ أنها :

> وقفت على المذاهب الأربعة من كل طائفة اثنان وستون فقيهاً، وأربعة معيدين، ومدرس لكل مذهب، وشيخ حديث، وقارئان وعشرة مستمعين، وشيخ طب، وعشرة من المسلمين يشتغلون بعلم الطب، ومكتب للأيتام وقدر للجميع من الخبز واللحم والحلوى والنفقة ما فيه كفاية وافرة لكل واحد[٣].

كما أن عمارة غالبية المدارس كانت على درجة كبيرة من الإتقان والسعة والجمال، ينفق عليها مالاً طائلاً بحساب الزمن الذي أنشئت فيه، فقد كانت المساحة الإجمالية لمدرسة سودون زاده (ت ٨١٠هـ) في القاهرة تصل إلى ٢٢٦٢م[٢] «تتكون من مساحة مستطيلة (٣٩ × ٧٠ر٢٨م) لها واجهتان... وكان للمدرسة بابين أحدهما رئيسي بالجهة الشمالية الغربية... والآخر جانبي

بالجهة الجنوبية الغربية... ويتوسطها صحن مستطيل (١٦ × ٧ر١٤م) مكشوف سماوي يحيط به أربع ظلات أكبرها ظلة القبلة»[٤].

والمؤكد أن جميع المدارس التي أنشئت في التاريخ الإسلامي كانت تعتمد على الوقف رغم تنوعها من حيث الحجم والإمكانات، وقد كان التعليم فيها:

مجانياً ولمختلف الطبقات، فلم يكن يدفع الطلاب في دارستهم الثانوية والعالية رسماً ما من رسوم الدراسة... ولم يكن التعليم فيها محصوراً بفئة من أبناء الشعب دون فئة، بل كانت فرصة التعليم متوفرة لجميع أبناء الشعب، كان يجلس فيها ابن الفقير بجانب ابن الغني، وابن التاجر بجانب ابن الصانع والمزارع، وكانت الدراسة فيها قسمين، قسماً داخلياً للغرباء والذين لا تساعدهم أحوالهم المادية على أن يعيشوا على نفقات آبائهم، وقسماً خارجياً لمن يريد أن يرجع في المساء إلى بيت أهله وذويه[٥].

وإذا كان من الصعب حصر كافة المدارس التي عرفت في التاريخ الإسلامي فلا بأس من إيراد معلومات عن بعضها مستقاة من مصادر تراثية مختلفة.

فالأمير سيف الدين علي بن الأمير علم الدين بن سليمان بن جندر وكان من أكابر الأمراء بحلب، وعرف بحبه للخير: وقف مدرستين بها إحداهما على الشافعية والأخرى على الحنفية[٦].

ووقف السلطان الملك الناصر صلاح الدين أبو المظفر يوسف بن أيوب المدرسة السيوفية على الحنفية[٧].

وشيد القاضي الفاضل في سنة ثمانين وخمسمائة المدرسة الفاضلية في القاهرة ووقفها على فقهاء الشافعية والمالكية[٨].

وأسس الأمير سيف الدين أيازكوج الأسدي المدرسة الأزكشية وجعلها وقفاً على الفقهاء الحنفية فقط في سنة اثنتين وتسعين وخمسمائة[٩].

ووقف عبد الرحيم بن حامد مهذب الدين الطبيب شيخ الأطباء بدمشق

المتوفى سنة ٦٢٧هـ داره بالصاغة العتيقة مدرسة للطب[١٠].

وفي سنة ٦٤١هـ «عمر الملك المنصور عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن مدرسة بالجانب الغربي من المسجد الحرام وأوقفها على الفقهاء الشافعية، وغبطه ملوك الأرض على هذه المدرسة وكانت هذه العمارة على يد الأمير فخر الدين الشلاح»[١١].

وأنشأ محيي الدين بن عبد الرحيم بن زكير القرشي المتوفي سنة ٧١٨هـ مدرسة في قوص ووقف عليها أوقافاً[١٢].

وعمر الملك علي بن داود بن يوسف بن عمر بن علي بن رسول صاحب اليمن مدرسة في عام ٧٣٩هـ «بالجانب اليماني من الحرم وأوقفها في ذي القعدة على الشافعية وأرباب وظائفها»[١٣].

كما وقف الأفضل عباس بن المجاهد صاحب اليمن في سنة ٧٦٨هـ مدرسة بالجانب الشرقي من المسجد الحرام على الفقهاء الشافعية[١٤].

وشارك عبد الوهاب بن عبد الله المعروف بابن أبي شاكر المتوفى سنة ٨١٩هـ فأنشأ مدرسة في منطقة بين السورين بالقاهرة ووقف عليها عدة أوقاف[١٥].

وأقام جمال الدين محمد بن محمد الناظري المتوفى في عام ٩٢١هـ مدرسة في مدينة إب باليمن ووقف عليها وقفاً جليلاً[١٦].

وما أوردناه غيض من فيض الإشارات التي تخص وقف المدارس والتي تحفل بها كتب التراث العربي.

ولعل من أهم المصادر التي يمكن للمرء مراجعتها للوقوف على تاريخ المدارس وعظم العناية بها عند العرب والمسلمين مؤلفات من مثل :

(المواعظ والاعتبار) للمقريزي.
و(الاعلاق الخطيرة) لابن شداد.
و(العقود اللؤلؤية) للخزرجي.

و(الدارس في تاريخ المدارس) للنعيمي.
و(تلخيص مجمع الآداب) لابن الفوطي.
و(تاريخ علماء المستنصرية) لناجي معروف.
و(تاريخ التعليم في الأندلس) لمحمد عبد الحميد عيسى.
و(تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى) لمحمد عبد الرحيم غنيمة.

* * *

وتعدى الاهتمام بالتعليم حدود المدارس إلى الإستفادة من المساجد والجوامع حيث نجد توجهاً نحو تخصيص أوقاف كبيرة يستغل ريعها في تكليف علماء بالتدريس فيها وتهيئة الظروف العادية لهم وللدارسين، فأعانت الأوقاف بذلك في أن تحتفظ المساجد بشهرتها العلمية واستمرارها مراكز للعلم في أنحاء العالم الإسلامي[١٧].

فقد خصصت أوقاف كثيرة على حلقات وزوايا للتعليم في جامع عمرو بن العاص الذي يعد أول مسجد أسس في مصر منها :

زاوية الإمام الشافعي رضي الله عنه يقال إنه درس بها الشافعي فعرفت به وعليها أرض بناحية سندبيس وقفها السلطان الملك العزيز عثمان ابن السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب، ولم يزل يتولى تدريسها أعيان الفقهاء وجلة العلماء، ومنها الزاوية المجيدية بصدر الجامع فيما بين المحراب الكبير ومحراب الخمس داخل المقصورة الوسطى بجوار المحراب الكبير رتبها مجد الدين أبو الأشبال الحارث ابن مهذب الدين أبي المحاسن مهلب بن حسَن... ومنها الزاوية الصاحبية... ومنها الزاوية الكمالية بالمقصورة المجاورة لباب الجامع... وأخبرني المقرىء الأديب المؤرخ الضابط شهاب الدين أحمد بن عبد الملك بن الحسن الأوحدي رحمه الله قال أخبرني العلامة شمس الدين محمد بن عبد الرحمن الصائغ الحنفي أنه أدرك بجامع عمرو بن العاص بمصر قبل الوباء الكائن في سنة تسع وأربعين وسبعمائة بضعاً وأربعين حلقة لإقراء العلم لا تكاد تبرح منه[١٨].

وهذا الخبر يبين لنا نشاط الحركة التعليمية التي اتخذت من هذا الجامع مركزاً على مدى قرون، وكان الوقف أكبر معين لها في في استمرارها وتواصلها.

وشهد جامع ابن طولون في مصر حركة علمية دؤوبة عن طريق العناية التي أولاها إياه الأمير علم الدين سنجر الدواداري نيابة عن الملك المنصور لاجين حيث أقامه في نيابة دار العدل، وجعل إليه شراء الأوقاف على الجامع الطولوني وصرف إليه كل ما يحتاج إليه في العمارة، فأزال كل ما كان فيه من تخريب وبلطه وبيضه ورتب فيه دروساً لإلقاء الفقه على المذاهب الأربعة التي عمل أهل مصر عليها الآن، ودرساً يلقى فيه تفسير القرآن الكريم ودرساً لحديث النبي (ﷺ) ودرساً للطب[١٩].

وكان جامع الحاكم الذي أسسه الخليفة الفاطمي العزيز بالله نزار بن المعز لدين الله، وأكمله الحاكم بأمر الله ابنه من مراكز التعليم الكبيرة في العصر المملوكي، بخاصة في عصر الأمير ركن الدين بيبرس الجاشنكير الذي وقف عليه عدة أوقاف في الجيزة والصعيد والاسكندرية، «ورتب فيه دروساً أربعة لإقراء الفقه على مذاهب الأئمة الأربعة ودروساً لإقراء الحديث النبوي، وجعل لكل درس مدرساً وعدة كثيرة من الطلبة»[٢٠] ولم يقتصر التدريس في هذا الجامع على الفقه والحديث فقد شمل أيضاً النحو والقراءات[٢١].

* * *

وكانت الربط والخانقاهات، التي كانت تأوي الفقراء والغرباء والطلاب، وتعتمد اعتماداً كلياً على الوقف مسرحاً لنشاط علمي مكثف ولا يستبعد المرء أن بعضها استغل في التعليم وإقامة حلقات الدرس نظراً لمجاورة مجموعة كبيرة منها للمساجد والمدارس، إضافة إلى احتوائها خزائن للكتب، وإقامة أعلام مشاهير من الفقهاء والعلماء فيها.

* * *

وقد أدرك كافة الواقفين للمدارس وزوايا العلم وحلقات الدرس في المساجد أهمية الكتاب في العملية التعليمية، وأن الاقتصار على تشييد الأبنة وتوفير جهاز

للتدريس غير كاف، فاهتموا بوقف الكتب عليها لتكون وسيلة ميسرة للتحصيل والمراجعة، توفر مادة علمية يستند عليها المعلم والمتعلم في وقت واحد، فأصبح من المعتاد وجود مكتبة في كل مدرسة أو جامع فيه زوايا للعلم، أو رباط وقف على طلبة العلم وغيرهم.

وترتكز هذه الدراسة على رغبة في استخراج دور الوقف الإسلامي في تشييد بنية المكتبة العربية على مدار القرون.

الهدف من الدراسة وأهميتها :

تظل معلوماتنا قاصرة عن الوضع الثقافي والفكري الذي شهدته مراحل التاريخ العربي على مدى القرون، والقضية ليست اجتراراً لنتف أو مجاراة لآراء وأقوال للوصول إلى تأكيد وترسيخ لصورة لعل من شكّلها اجتهد حقيقة، ولكن ليس من الالزام قبول ما وصل إليه أو إعادة بنائه بألفاظ مغايرة.

فالقول أن عصر الانحطاط كان بعد سقوط بغداد، هو من الأقوال التي لم تعد تقو على الصمود أمام الحقائق المغروسة المتجذرة التي بدأت تتكشف لنا من خلال محاولة تكوين صورة إجمالية للثقافة والفكر العربي، لا تقوم على التجزئة السكانية، ولا على التجزئة الموضوعية، فإن كان هناك انحطاط في الأدب فليس بالضرورة أن يكون ذلك قد أصاب الطب والفلسفة وعلوماً أخرى.

كل ذلك لابد أن يربط بحركة التعليم في المساجد والمدارس، وأن يربط بالتوجه نحو ترسيخ قاعدة التعليم المرتكز على أسس منفتحة لا يهيمن عليها الكتاب المدرسي، بل الأخذ من أكثر من مصدر والاطلاع على الآراء حميدها ومذمومها لاستخلاص موقف ذاتي، وكان ذلك في تشييد بنية المكتبة العربية.

وقد ارتبطت حركة الثقافة العربية بشكل عميق وقوى بالمكتبة، منذ أن شرع العرب في تشكيل أعمال تأليفية بسيطة وتوجهوا نحو تخصيص مكان يجمع فيه ما يصنف ويؤلف ليصل إليه أكبر قدر ممكن من القراء.

ولعل مما يؤكد ذلك أن عبد الحكم الجمحي شيد في فترة مبكرة مكتبة في مكة وجعلها عامة، ولجذب أكبر قدر من القراء طعمها بوسائل ترفيه وتسلية قد